

لا تعجز

إعداد

سظام بن قادم الشمري

دار القسمة



ج) دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٢٨هـ
فقرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشمري، سطاتم قادم زيد
لا نعجز! سطاتم قادم زيد الشمري. - الرياض، ١٤٢٨هـ
١٠ ص ؛ ... سم

ردمك: ٥ - ١٨٨ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨
١- الوعظ والارشاد ٢- العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٢٨/٥٧١١

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٥٧١١
ردمك: ٥ - ١٨٨ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الصفء والمراجعة والإخراج بدار القاسم

فروع دار القاسم للنشر
جدة. هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام. هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١
بريدة. هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١
خميس مشيط. هاتف: ٢٢٢٢٢٦١ - فاكس: ٢٢٢٣٠٥٠
www.dar-algassem.com
sales@dar-algassem.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً... أما بعد:

هناك سؤال وجيه يطرح باستمرار وهو هل يستطيع الإنسان تغيير أخلاقه وطباعه وعاداته من العادات والممارسات الرديئة إلى عادات وممارسات حسنة؟ وقد اختلف الناس في الإجابة على هذا السؤال فبعضهم يقول لا يمكن للأخلاق أن تتغير! ويستدلون بأشخاص كثير يحافظون على الصلاة بأوقاتها مع الجماعة دون أن يكون لها تأثير مباشر أو واقع ملموس على أخلاقهم وطباعهم.

يقول الله عز وجل: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥] لماذا لم تغير الصلاة من طباع هؤلاء؟ الجواب لأن طباعهم وأخلاقهم جبلية

لا يمكن أن تتغير! كذلك فإن الناس يصومون رمضان في كل عام دون أن يؤثر في أخلاقهم فيحفظ جوارحهم من الوقوع في حبائل الشيطان، وإذا حفظوها في رمضان فسرعان ما تعود لحالتها السابقة بعد رمضان، أيضاً قراءة القرآن الكريم فهناك من يقرأ القرآن الكريم ويدوم على قراءته بيد أنه لم يغير من طباعهم، ومن أدلتهم بممارسة البعض لأعمال تتعارض مع ظواهرهم وتقاعسهم عن أعمال الخير وعزوفهم عن كثير من الأعمال الفاضلة والجواب برأيهم أن «الطبع يغلب التطبع»!!

وبطبيعة الحال فإن الرأي الصواب والصحيح هو أن الأخلاق يمكن أن تتغير وما ذكر آنفاً من عدم تغيرها أثناء أداء العبادات فهذا واقع مشاهد مع الأسف الشديد ومرده ومنشأه من ضعف الإيمان والإنشغال بالدنيا وملذاتها والغفلة عن الآخرة، فإذا صلى الشخص وباله مشغول عن صلاته فلا ريب أن ذلك سيؤثر على خشوعه وطمأنينته وبالتالي فهذه الصلاة لن تمنعه من ارتكاب الفواحش واقتراف المنكرات إذ أن الصلاة بلا خشوع كالبدن بلا روح كما قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : يقول ﷺ :

«إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعة»

سدسها خمسها ربعها ثلثها نصفها»^(١) .

ونتيجة لذلك فسيحرم من الحكم النبيلة والثمرات الجليلة والمقاصد العظيمة التي هي ثمرة من ثمرات العبادات كالنهي عن الفحشاء والمنكر والطمأنينة وتركية النفس والتحسين من الشياطين والحسنات والأجور المضاعفة وذلك يشمل جميع العبادات كالصوم والزكاة والحج وقراءة القرآن الكريم وغيرها من العبادات؟ فلا بد من الإخلاص أولاً ثم الخشوع والتدبر لتقبل العبادة ويجني العبد ثمارها وبالتالي تتغير طباعه وأخلاقه إلى الأفضل فلو أن المصلي كان خاشعاً حاضراً القلب مفرغ نفسه من جميع العلائق الدنيوية متماً لشروطها وأركانها وواجباتها وكان حاله بهذه الصورة والكيفية عند أداء جميع العبادات فإن ذلك مؤذن ولا بد بتغيير طباعه وسلوكه للأفضل .

وإن الناظر في أحوال الناس وتهاونهم في أداء هذه العبادات ليشعر بالأسى والحسرة على ما آلت إليه أحوالهم ويحتار في أمرهم لاسيما وأن هذه العبادات من الأهمية بمكان فهي أركان الإسلام ومبانيه العظام وهي قائمة على اليسر والسهولة فالصلاة فرضت خمس مرات في اليوم بدلاً عن خمسين

وتأديتها لا تأخذ من أوقاتنا سوى بضع دقائق .

أما الزكاة فقد فرضت بنسبة ربع العشر أي ما يوازي ٢,٥٪ وهذه نسبة ضئيلة جداً وتدفع مرة واحدة فقط في العام، وبالنسبة للصوم فإن الله - عز وجل - قد فرض علينا الصيام لمدة شهر واحد فقط من كل عام، أما فيما يتعلق بالحج فهو واجب مرة واحدة فقط في العام، تأملوا أيها الأخوة لو أن الصلاة تؤدي خمسين مرة في اليوم! ماذا سنفعل لو أن الصيام ٣ أو ٤ أشهر متتالية؟ كيف سيكون حالنا لو أن الحج واجب في كل عام؟ ولذلك يجب علينا أن نستحضر هذه النعمة العظيمة بأن يسر لنا الشارع الحكيم - عز وجل - هذه التكاليف الشرعية وسهلها ليتمكن الجميع من تأديتها بيسر وخشوع وتذلل لله - عز وجل - ويكون لها أثر بالغ في سلوكه وطباعه في جميع شؤون الحياة.

بالمثال يتضح المقال:

يقول البعض أن (الطبع تحت الروح ولا يزول إلا بخروج الروح) وبالتالي فمسألة تغيير الطباع والسلوك متعذر ومستحيل!! كما قال الشاعر:

إذا رام التخلق نازعته

خلائقه إلى الطبع القديم

ربما تكون مسألة التغيير فيها نوع من الصعوبة والتعقيد

غير أنها ليست مستحيلة قطعاً كل ما هنالك أن ذلك يتطلب إرادة صلبة وهمة عالية وعمل دؤوب ومجاهدة للنفس لكبح جماحها وقبل ذلك أن يكون التغيير **لله** - سبحانه وتعالى - «**فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه**» ثم وعي وإدراك بطرق ووسائل التغيير وحتما سيتمكن بعد ذلك المرء من تحرير نفسه من العواطف والعادات السيئة إذ أن قيمة الإنسان الحقيقية هي تحرره من سيطرة ذاته السلبية ليتمكن بعد ذلك من ردم هوة الاختلاف بين ما يريد وواقعته، فتحن حينما نستعرض الأقوال نجدها تتعارض تماماً مع الأفعال فالأقوال مع الآخرة والجنة والأفعال مع الدنيا وملذاتها وزخرفها الزائل يقول أحد الحكماء: «لو أن الدنيا ذهباً يغني والآخرة خزفاً يبغي لوجب على العاقل أن يختار الخزف الباقي على الذهب الفاني»^(١).

* كان أحد الأشخاص عصيباً حاد المزاج يغضب لأتفه الأسباب وقد تم نصحه من بعض أقاربه وأصدقائه لا سيما وأنه لا يوجد في أغلب الأحيان ما يستدعي الغضب غير أنه كان يبدي أسفه على طبعه غير السوي ويحتج بأنه لا يستطيع تغيير طباعه وبعد فترة أحس بالتعب فذهب

(١) أبوبكر الجزائري، هل المسلمون اليوم مسلمون حقاً؟

للمستشفى فأخبره الطبيب بأنه يعاني من إرتفاع في ضغط الدم والسكري وأن حياته في خطر شديد وسيعاني من متاعب صحيه ما لم يتدارك وضعه ويتعد عن الغضب بأسرع ما يمكن ، وقد استطاع هذا الشخص الابتعاد عن الغضب بل أنه أصبح من أهل المرح والتسلية!!

* حكى لي صديق قصة قريب له مبتلى بالتدخين لمدة خمسين سنة وهو يدخن أربعين إلى خمسين سيجارة يومياً وبطبيعة الحال فهو كان راغباً في الإقلاع عن التدخين بيد أنه يقول لمن يقدم له النصيحة بأنه لا يمكن أن يقلع بعد هذه السنوات الطويلة وأن ذلك مستحيل وكتيجة لممارسته التدخين فقد أصيب بمرض في القلب وأجرى على إثره عملية جراحية وبعد خروجه من المستشفى حذره الأطباء بأن عليه الإقلاع عن التدخين فوراً وإلا فإنه سيموت!! فخاف الشخص وما كان منه إلا أن أقلع عن التدخين!

* كان أحد الأشخاص متهاوناً بأداء صلاة الفجر مع الجماعة في المسجد وبعد خمس سنوات تقريباً صلى في المسجد صلاة الفجر فإنتهز الإمام الفرصة وبادر بالسلام عليه ثم قال له: منذ خمس سنوات لم أشاهدك تصلي الفجر معنا! فقال الشخص وهو مطأطئ رأسه: نعم

يا شيخ فأنا في الحقيقة أعاني من ثقل في نومي فقال له الشيخ: الأمر بسيط ساعة منه فقال الشخص: ما ينفع يا شيخ فأنا أظفيء المنبه وأعود للنوم وأحياناً أكسر الساعة! فقال الشيخ: لما لا توصي والدتك بإيقاظك؟ فقال الشخص: لقد أعيأها التعب حتى أنني أشفت على حالها! ففكر الشيخ قليلاً ثم قال له: ما رأيك لو أنني طلبت من جماعة المسجد أن يجمعوا مبلغاً من المال لنقدمه جائزة لك إذا حافظت على صلاة الفجر مع الجماعة لمدة شهر واحد فقط وكان الشيخ يعرف أنه غير موظف (وكان جماعة المسجد من الموسرين) ففرح الشخص فرحاً شديداً وقال: إنني عاجز عن شكرك يا شيخ وأسأل الله أن يجزيك خير الجزاء وسوف أحافظ على الصلاة لمدة شهرين بل ثلاثة زيادة وتبرعا من عندي فقال الشيخ: ولكن هناك مشكلة كبيرة سوف تفسد علينا مشروعا فقال الشخص بلهفة شديدة: ما هي يا شيخ خيراً إن شاء الله؟ فرد عليه الشيخ كيف تستيقظ؟ فقال الشخص وهو يتسم: لقد أفرغتني يا شيخ الأمر بسيط جداً ولا يستحق القلق، لا عليك اطمئن سأستيقظ!!

هذه نماذج لأشخاص استطاعوا (عندما أرادوا) تغيير

طباعهم وسلوكياتهم وأكاد أجزم أن معظمكم ذاكرته حبلى بأمثلة مشابهة .

إن التغيير صفة إيجابية تجعل المرء يتقدم ويستشعر قيمة جديدة لحياته ويتلذذ بالمعاني المرتبطة بهذا التغيير وهو كما يقول د. علي الحمادي: «التغيير هو التحول من واقع معين إلى واقع آخر منشود خلال فترة زمنية معينة»^(١).

موانع وهمية:

إن الأشخاص الذين ذكروا آنفاً كانوا في حقيقة أمرهم يتهربون من الواقع ويلجأون للإعتذار والتسويق وهناك من هو أسوأ منهم وهو من يبحث عن زلات وأخطاء شخص ناجح مبدع ليطفئ نار الشعور بالنقص^(٢)، وهذه كلها إنما هي (موانع وهمية).

ونماذج هؤلاء الأشخاص تثبت بشكل جلي أن الإرادة والرغبة توجد حلول لكثير من المشاكل، وهذا هو الفرق بين الإنسان الناجح وغيره إنها العزيمة والحماس والطموح وليس نقصاً في القدرات أو المعرفة أو الذكاء والإنسان الفاشل هو الذي يفكر دون تنفيذ أو ينفذ دون تفكير^(٣).

(١) د. علي الحمادي، التغيير الذكي، دار ابن حزم للطباعة، الطبعة الأولى.

(٢) خليل صقر، صناعة المستقبل، دار ابن حزم للطباعة الأولى ١٤٢٢هـ.

(٣) د. كفاح فياض، أمثلة من ذهب، قرطبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى

انفصام مريع بين الإيمان والسلوك:

النفس تتعود على ما قمنا بتعويدها عليه عن ممارسات فمن عودها على فعل الطاعات والخيرات وألزمها على ذلك مالت إلى فعل ذلك ومن عودها البطالة صعب عليه القيام بأي دور، ومن يتأمل في واقعنا وأحوالنا يجد الانفصام المريع بين الإيمان والسلوك الأمر الذي يدل على ضعف سلطان العقيدة على عقل المسلم وقلبه ثم عدم شغل الوقت بما ينفع الإنسان نفسه وأهله ومجتمعه ومن الخطأ بمكان ما قد يظن بأن هذه القضية قضية هامشية بل إنها من القضايا الجذرية في بناء الإنسان والتي لها انعكاساتها العميقة الجذور في المجتمع^(١) ولذلك فلا بد من معرفة النفس وإدراك الفروق بين الشخص والأخرين ومعرفة مميزات ذاته وطباعه وردود فعله وعواطفه يقول أحد الحكماء: «لا يوجد إنسان ضعيف ولكن يوجد إنسان يجهل في نفسه مواطن القوة المعوضة».

ويقول المتنبي:

ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادريين على التمام

(١) الأستاذ الدكتور. محمد أديب الصالح، الإنسان والحياة في وقفات مع آيات.

ولكي ينجح الشخص في تحقيق مبتغاه فلا بد له من الحرص على العمل والفقه في الدين حتى يستطيع أن يوجه المجتمع إلى الطريق السوي ويأخذ بيده إلى شاطئ السلامة وحتى يعلم كيف يعمل فيبدأ بنفسه ويجتهد في إصلاح سريره ومسابقته إلى كل خير فيكون مع أول الناس في الصلاة ومع أول الناس في كل خير ويكون أبعدهم عن كل شر ويمثل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ في أعماله وأقواله مع زملائه وإخوانه وأعوانه، وكذلك الدعوة إلى الله مع الإخلاص والصدق في ذلك^(١).

قال عز وجل: ﴿وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر].

فالإنسان في خسارة إلا من آمن وعمل أي قرن العلم بالعمل ثم دعا إلى الحق وصبر على الأذى في سبيل تبليغه.

كيف بنى الصحابة أمجادهم؟

إن من نافلة القول أن المرء ينبغي له مطالعة سير الصحابة - رضوان الله عليهم - وكيف استطاعوا

(١) سماحة الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، مجموعة فتاوى ومقالات متنوعة الجزء الثاني والثالث.

بإرادتهم التحول من سلبين يعيشون على هامش الحياة إلى شخصيات وقيادات وزعامات كانت لهم اليد الطولى في قيادة الأمة نحو العزة والكرامة، لقد كانوا يعيشون حياة العتب والضياع والمهانة وبعد أن أسلموا **الله** أنفسهم صاروا شيئاً آخر^(١) ملكوا البلاد وسادوا العباد ودانت لهم الدنيا بأسرهم بهم ظهر الحق وانتشر العلم وحفظت الأوطان والأعراض رغم ما تعرضوا له من مضايقة وفتن ذاقوا ألوان وصنوف العذاب إلا أن ذلك لم يكن ليشينهم أو يتسبب في نكوصهم وتقهرهم عن طريقهم قيد أنملة وكانوا مع ذلك بسطاء يواسي غنيهم فقيرهم ويرأف عالمهم بجاهلهم^(٢) وهذا كله لا يتأتى إلا بترك سوء الظن بالنفس وإزدرائها واحتقارها والبدء بالممارسة والمشاركة بالعطاء والتأثير.

ولنضرب مثلاً بسلمان الفارسي - رضي **الله** عنه - فهو الذي أشار بحفر الخندق كما هو معلوم يقول ابن هشام: «حدثني بعض أهل العلم أن المهاجرين يوم الخندق قالوا سلمان منا وقالت الأنصار سلمان منا فقال رسول **الله**

(١) حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار الندوة الجديدة.

(٢) محمد بن سالم الكدادي البيجاني إصلاح المجتمع دار المجتمع للنشر الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ الناشر العبيكان.

ﷺ: «سلمان منا أهل البيت»^(١).

كيف استطاع سلمان الفارسي - رضي الله عنه - تحقيق هذا المجد العظيم الذي قد يبدو صعباً بل مستحيلاً عند البعض.

ترى لو أن سلمان - رضي الله عنه - حدثته نفسه بأنه رجل ليس من كبار الصحابة وأن أصوله ليست عربية وأنه لا يمكن أن يكون له حظوة أو مكانة خاصة لدى النبي ﷺ فكيف ستكون النتائج؟ تأملوا هذا النجاح الباهر الذي حققه - رضي الله عنه - فقد أصبح من آل البيت بشهادة النبي ﷺ، ولذلك كما ذكرنا فلا ينبغي للمرء أن يستضعف نفسه ويقلل من شأنها قال عز وجل: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

فلا بد له أن يسعى لتجاوز العقبات وتخطي الحواجز فالإنسان أثناء مسيرة في الحياة الدنيا يكون في مكابدة ومجاهدة لهذه العوائق التي تحول دون تحقيقه النجاح المنشود والهدف المؤمل، ومما ينبغي لفت الانتباه إليه هنا التغافل أو التغاضي وغيض الطرف عن بعض صغائر

(١) السيرة النبوية لابن هشام، دار الجيل للطباعة الطبعة الأولى.

وتوافه الأمور والقيـل والقال التي يسعى البعض لبثها لتكون عقبة كؤود في طريق الشخص الناجح .

يقول الإمام الشافعي - رحمه الله - : «الليـب العاقل هو الفطن المتغافل» ، ويقول المتنبـي : «ليس الغبي بسيد في قومه . . . لكن سيد قومه المتغابي»^(١) .

وكلما كان المرء على معرفة جيدة بحقيقة الناس كلما علم أنهم على جهل عظيم قال ﷺ في الحديث المتفق عليه : «إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيهم راحلة» ، وقال عز وجل : ﴿وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] .

موانع حقيقة:

١. اللبـ: قال عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ، روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً؟ فقال ﷺ : «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» .
معنى «بطر الحق» : أي : دفعه ورده ، «وغمط الناس» :

(١) ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى .

أي: إزدرائهم وإحتقارهم.

٢. العجب: وهو سبب لنسيان الذنوب واستصغارها واحتقارها يؤدي إلى الكبر ويجعل المرء يحسن الظن بنفسه ويحرم نفسه من فعل كثير من نوافل العبادات.

٣. الغضب: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رجلاً قال للنبي ﷺ أوصني: قال: «لا تغضب» فردد مراراً قال: «لا تغضب»^(١) وهذا من جوامع كلمة ﷺ فالغضب عواقبه وخيمة سواء على الفرد أو الأسرة أو المجتمع بإستثناء الغضب المحمود وهو عندما تنتهك محارم الله وتنتشر الرذيلة.

٤. الحقد: وهو متولد من الغضب مما يجعل المرء دائماً يخاصم ويظهر الضغينة لغيره لأتفه الأسباب ويحقر أخاه المسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»^(٢).

٥. الحسد: وهو متولد من الحقد فإن من يحقد على شخص سوف يحسده لا محاله على ما حباه الله من نعم وما يتميز به من الأخلاق الكريمة ويجعل المرء يزدري الناس قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴿ [الحجرات: ١١] .

٦. غشيان الذنوب مع الإصرار والاستهانة بها: فالإصرار على

الذنوب أقبح منه كما قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - ^(١) قال رسول الله ﷺ: «ياكم ومحقرات الذنوب....» الحديث صحيح الجامع ٢٦٨٧ وعن أنس - رضي الله عنه - قال: «أنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعرة إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات» رواه البخاري.

وأثار الذنوب والمعاصي كثيرة جداً منها حرمان العلم والرزق ومحق البركة في العمر والرزق والعلم والعمل والطاعة وهوان العبد على ربه ^(٢).

٧. عمى القلب: قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ

وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ [الحج: ٤٦]، قال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ألا وهي القلب» متفق عليه.

فإذا صلح القلب بالإيمان لزم أن تقوم الأعضاء بالأعمال ولا بد فإن البدن تابع للقلب لا يخرج عن إرادته فيلزم

(١) الإمام ابن القيم، مدار السالكين، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.

(٢) الإمام ابن القيم، الجواب الكافي، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.

من صلاح القلب ضرورة صلاح البدن كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالأصل القلب فإذا كان فيه صلاح وإرادة سرى ذلك إلى الجوارح ضرورة ولا يمكن أن يتخلف عمل الجوارح عما يريده القلب^(١).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه» رواه الإمام أحمد، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

والقلب له شهوة وإقبال يقول عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: «أن للقلوب شهوة وإقبالا وأن لها فترة وأدباراً فأغتنموها عند شهوتها وإقبالها ودعوها عند فترتها وادبارها»^(٢).

وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» رواه الإمام أحمد.

فالقلب سريع التحول سريع التقلب، وفي صحيح مسلم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قلب ابن آدم أشد إنقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياناً».

٨. الغفلة: داء ينتج من عمى القلب فإذا أصيب القلب بالعمى غفل المرء عن عمل الطاعات والخيرات، والغافل

(١) عبدالله بن محمد الغنيمان، دار التدمرية، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ.

(٢) عبد الستار الشيخ عبدالله بن مسعود، دار القلم للطباعة، الطبعة الثانية.

يستطيع أن يعمل بهمة ونشاط فلديه جميع المقومات غير أنه يؤثر الدعه والتلذذ بالراحة على الاجتهاد.

وأساء ما في الغفلة أنها تفوت على صاحبها الكثير من أبواب الخير رغم قدرته على فعلها وهي سبب للكثير من الذنوب والمعاصي وقد نهى - عز وجل - عن الغفلة فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ۝٢٥﴾ [الأعراف: ٢٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ۝٢٦﴾ [يونس: ٩٢].

٩. الإعراض عنه ذكر الله: قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝٢٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۝٢٧﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝٢٨﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].

مفاتيح التغيير:

١. سلامة الصدر: فسلیم الصدر ودوداً بأخوانه محباً لهم ما يحب لنفسه طالبا لما فيه صلاحهم شغوفا بنصحهم قال عز وجل: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٢٩﴾ [الصفات: ٨٤]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير».

٢. تفعيل الحسب الرقابي: إن قيمة النفس الحقيقية تتمثل

في تجاوز السلييات وإنتاجها أما إخفاقها فيتجلى بكسلها وتهاونها فيصاب المرء بما أسماه الشيخ الدكتور عايض القرني في كتابه حدائق ذات بهجة (نعاس الروح).

ونحن في سبيل إصلاح أنفسنا بأمس الحاجة لتنمية وتفعيل الحس الرقابي ولنستحضر في هذا المقام شهر رمضان كدليل واضح على استطاعة المرء مراقبة نفسه بصرامة، فمما لا ريب فيه أن من أبرز فضائل الصوم أن له تأثير عجيب على النفس من خلال مراقبتها باستمرار وعدم الغفلة عنها لا سيما وأن الصوم سر بين العبد وربه لا يعلم به أحد، وعلينا أن نتأمل ونتمعن حجم التغير الهائل الذي سيحدث فيما لو استمرت هذه المراقبة الذاتية الصارمة طوال أيام السنة.

٣. نكراه الذات: إن العاقل الذي يسعى لتطوير نفسه والعمل بجهد مع إخوانه لا ينظر لموقعه ووضعه مهما كان وعطاؤه وعمله مرتبط الدور المنوط به فالجهة أو الارتباط والعلاقة بين موقعه وعمله (منفكة) فيكفي المرء أن يشارك ويساهم بما يستطيع وهو جزء من عملية كبيرة لها آثارها التي تنعكس بصورة إيجابية على الفرد والمجتمع.

قال رسول الله ﷺ: «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل

الله أشعث رأسه مغبرة قدماءه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقه كان في الساقه إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع^(١).

وعندما نعود بذاكرتنا إلى سير بعض السلف الصالح - رضوان الله عليهم - نجد أنهم كانوا يشاركون ويعملون بهمة عالية مع تنوع أدوارهم بل أن بعضهم يمتلك مواصفات قيادية بارزة ويحقق نجاحات لا تضاهى ثم مايلبث أن ينحى عن موقعه القيادي ولا يغضب من جراء ذلك ولا يثنيه عن مواصلة عطائه المثمر.

وقد حدث ذلك لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - (سيف الله المسلول) ذلك القائد والفارس المحنك فقد نحي عن قيادة الجيش وأصبح جندياً عادياً واستمر بنفس الهمة والنشاط أيضاً فإن كبار الصحابة - رضوان الله عليهم - قد شاركوا في الجيش تحت إدارة وقيادة أسامة بن زيد الشاب الذي لم يبلغ بعد ٢٠ سنة.

لقد فعلوا ذلك لأنهم نأوا بأنفسهم عن الكبر والعجب والحسد والضعينة وهي الأمراض التي أشرنا لها وهي (موانع حقيقية) للنجاح، كانوا يبحثون عن مصلحة الأمة

وكيفية الرفع من شأنها ورقيها، والنهوض بالدين بغض النظر عن الثناء الشخصي أو التقدير والتبجيل الذاتي، ولذلك نجحوا نجاحاً منقطع النظير وأصبحوا قدوات لنا ولا بد إن أردنا النجاح أن نتبع طريقهم وخطاهم ونطبق ما فعلوا لنحصد النجاح، وهذا لا يكون إلا بالترابط والتآخي فيما بيننا وزيادة أواصر الأخوة قال عز وجل:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال ﷺ: «المؤمن

للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه»^(١) وقال

ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا

اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(٢). ويقول

ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٣).

ولذلك فالمرء يحب لأخيه كل خير فإذا كان يعمل معه

وهو في مركز قيادي فيجب أن يعمل معه بإخلاص وتفاني

دون أن يكون في نفسه شيء أو ينظر لمكتسباته وحظوظ

نفسه فيتأثر نشاطه بسبب ذلك بل يعمل وسينال الأجر إن

شاء الله وهو على أية حال يعتبر من المساهمين الفاعلين

وبذلك يبقى المجتمع متماسكاً مستمراً في تفاعله وعطاءه.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

الظلمة والعزلة:

اختلف الناس في الكلام حول الخلطة والعزلة فبعضهم يرى أن العزلة جزء من حل بعض المشاكل بحيث يكون المرء بعيداً عن القيل والقال فهذا هو المنجى وكذلك أن ينأى المرء بنفسه عن القضايا التي لاتهم الفرد وبذلك يسلم من الأخلاق الرديئة والبعض الآخر على النقيض من ذلك فهم يرون أن المرء لابد أن يخالط الناس في أماكنهم وأن يكثر من ذلك وأن ذلك سبب لتغيير طباعه للأفضل وكلا القولين خطأ فإن العزلة والإنفراد هي في الواقع سبب من أسباب الضياع وهي بجانب ضررها البالغ على الفرد والمجتمع فإنها تمنع من الخير الكثير والأعمال الصالحة ما الله به عليم.

أما كثرة الخلطة فإنها توقع في الكثير من المنكرات وهي تفضي إلى الغفلة وتفسد القلب والضابط النافع في أمر الخلطة أن يخالط الناس في الخير كالجمعة والجماعات والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات^(١).

(١) الإمام ابن القيم، مدارج السالكين، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.

أنواع الناس في الخلطة:

- ١- من مخالطتهم كالغذاء وهم العلماء.
 - ٢- من مخالطته كالدواء وهم من يخاطون لمصلحة المعاش.
 - ٣- من مخالطته كالداء وهم من يتسببون بالأضرار الدينية والدنيوية.
 - ٤- من في مخالطته الهلاك كله وهم بمنزلة أكل السم وهم أهل البدع والضلالة فالبعد عنهم خير^(١).
- والاجتماع بالناس ومخالطتهم على قسمين:
- ١- اجتماع لمؤانسة الطبع وشغل الوقت: وهذا مضرته أرجح من منفعته وأقل ما فيه أن يفسد القلب ويضيع الوقت.
 - ٢- الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر: وهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات:

- ١- تزين بعضهم لبعض.
- ٢- الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

(١) الإمام ابن القيم، بدائع الفوائد، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.

٣- أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود^(١).

ومخالطة الناس في المناسبات الشرعية تمكن المرء من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتقديم النصيحة وكذلك أبواب الخير الكثيرة مثل الكلمة الطيبة، والتبسم في وجه أخيك المسلم وإغاثة الملهوف وملاطفة اليتيم وإزالة الأذى عن طريق المسلمين ورد السلام قال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً موثقين أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف»^(٢).

ظاهرة التقاعس:

أصبحت ظاهرة التقاعس عن نفع الغير والركون إلى الراحة والدعة بمثابة العادة لدى الكثيرين - هداهم الله - همهم الحرص على الملذات الدنيوية قال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

ومن أبرز العوائق المثبطة للعمل والمحفزة للكسل الأصدقاء الذين يهتمون بالدنيا وهؤلاء لا فائدة ترجى منهم على الإطلاق فهم يحرصون على مصالحهم فقط

(١) الإمام ابن القيم، بدائع الفوائد، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.

(٢) رواه النسائي وقال: حسن صحيح.

لا غير وبعد إنتهاء مصالحهم يتلاشون قال عز وجل :
 ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧: الزخرف)
 [الزخرف: ٦٧] فتجدهم يتسابقون نحو المسؤول أو التاجر
 وغيره في وقت المصلحة وعندما يعفى من منصبه فإنهم
 سرعان ما يتركون وربما تنقصوه قال سبحانه وتعالى :
 ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩: التوبة)
 (١).

نصائح ثمينة:

- ١- قراءة القرآن بتدبر وفهم لمعانية.
- ٢- الخشوع وحضور القلب عند أداء الصلاة.
- ٣- الحرص على سلامة العقيدة إذ أن كل إنحراف في السلوك إنما هو ناتج من خلل في العقيدة.
- ٤- الدعاء فالنبي ﷺ وهو أكمل المؤمنين أخلاقاً يقول :
 «اللهم إهني لأحسن الأقوال لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأعمال والأدواء».
- ٥- التوكل على الله - عز وجل - والإستعانة به يقول الله عز وجل : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].
- ٦ - قراءة سيرة النبي ﷺ وكيف أنه كان يعفو عمن

ظلمه ويصل من قطعه ويعطي من منعه وغير ذلك من الفضائل ومكارم الأخلاق .

٧ - الصبر والتحمل فالبداية قد تكون صعبة لكن سرعان ما تسهل ويحسن الاستفادة من سيرة الأنبياء والصحابة والعلماء في جلدتهم وصبرهم على ما لقوا من أذى وابتلاء لم يشبطهم أو يثنيهم أو ينل من ثباتهم .

٨ - مجالسة أهل العلم والجد والنشاط .

٩ - عود نفسك على بذل الخير للآخرين ومساعدتهم .

١٠ - الاعتراف بالأخطاء والتقصير ومحاسبة النفس .

١١ - عود نفسك على الصدقة وطرده البخل والشح .

١٢ - عود نفسك على الإيثار وطرده الحرص وحب

الذات .

١٣ - عود نفسك على الانضباط في كل شيء وكن واضحاً دائماً وتجنب الغموض .

١٤ - تفكر في عاقبة سوء الخلق وما يجلبه من الندم والحسرة وكرهية الناس لصاحبه .

١٥ - احرص على طرد العجز والكسل وحب الدعة

فقد كان من دعائه ﷺ : «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن

وأعوذ بك من العجز والكسل...» الحديث رواه أبو داود.

تنبيه:

ونحن نتحدث عن تغيير الأخلاق والسلوكيات والحرص على الإنتاج وعلو الهمة يجدر بنا أن نحذر من قراءة بعض الكتب الأجنبية المعربة التي في واقع الحال توجد فجوة وهوة سحيقة في علاقة المسلم مع خالقه فلا نتحدث عن العقيدة ودورها الرئيسي ولا نتطرق للدعاء والتوكل والاستعانة **بالله** - عز وجل - اهتمامها هو النجاح الدنيوي فقط ويبدو ذلك جلياً بتركيزها وتسليطها الأضواء على المادة فقط مثل قول بعضهم: «كيف تصبح ثرياً»، «أنت تستطيع أن تؤسس الكثير من الشركات العملاقة»، «كيف تستطيع لفت أنظار الناس ليدفعوا لك مبلغاً من المال»، «هل تريد أن تكون جذاباً أو مشهوراً وثرىً حسناً فكر... ثم قرر».

أيها الأخوة إن مطايا الليل والنهار تسرع بنا ولا نتفكر إلى أين نحمل ويسار بنا أعظم من سير البريد ولا ندري إلى أي الدارين ننقل^(١).

وقد إنغمسنا في حب الدنيا وملذاتها وزخرفها وهذه

(١) ابن القيم الجوزية، حادي الأرواح في بلاد الأفراح، دار الكتاب العربي الطبعة الثانية.

الفتن التي أصبحت تلازمنا وتحيط بنا إحاطة السوار بالمعصم إنما هي ناتجة من أنفسنا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال جل وعلا: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إذا فمن البديهي والحال هذه أن نبادر لإصلاح أنفسنا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، من الأهمية بمكان أن نستغل أوقاتنا بما يعود علينا بالنفع لاسيما وأن الأعمار قصيرة والأنفاس معدودة والآجال محدودة ولذلك يجب علينا جميعا المسابقة بالمسارعة للتغير وذلك بالحرص على فعل الطاعات واجتناب المنهيات قال عز وجل: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

اللهم ألهمنا قوة من عندك ننازع بها كوامن الشر في أنفسنا... اللهم يا حي يا قيوم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

سظام بن قادم الشمري

أخفجي ١٤٢٨هـ

قائمة المراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة.
- ٣- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة.
- ٤- سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبو داود، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة.
- ٥- أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة.
- ٦- محمد بن عيسى الترمذي، جامع الترمذي، دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة.
- ٧- الإمام أحمد بن حنبل، المسند.
- ٨- الإمام ابن قيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية.
- ٩- الإمام قيم الجوزية، مدارج السالكين، الجزء الأول، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.
- ١٠- الإمام ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.
- ١١- الإمام ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.
- ١٢- ابن هشام، السيرة النبوية، دار الجيل للطباعة، الطبعة الأولى.
- ١٣- ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار المعرفة للطباعة، الطبعة الأولى.
- ١٤- سماحة العلامة عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، الجزء الأول والثالث.

- ١٥ - عبدالله بن محمد الغيمان، الإيمان حقيقته وزيادته وثمرته، دار التدمرية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
- ١٦ - خالد بن عبدالله المصلح، صلاح القلوب، دار الوطن للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- ١٧ - أبوبكر الجزائري، هل المسلمون اليوم مسلمون حقاً؟
- ١٨ - محمد بن سالم حسين الكدادي البيحاني، إصلاح المجتمع، دار المجتمع للنشر، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ.
- ١٩ - د. محمد أديب الصالح، الإنسان والحياة في وقفات مع آيات، الناشر مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
- ٢٠ - حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار الندوة الجديدة للطباعة.
- ٢١ - د. عايض القرني، حقائق ذات بهجة، دار حزم للطباعة، الطبعة الأولى.
- ٢٢ - د. عبدالله خاطر، فن التعامل مع الناس، الناشر المنتدى الإعلامي بلندن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
- ٢٣ - د. على الحمادي، التغيير الذكي، دار ابن حزم للطباعة، الطبعة الأولى.
- ٢٤ - خليل صقر، صناعة المستقبل، دار ابن حزم للطباعة، الطبعة الأولى.
- ٢٥ - د. كفاح فياض، أفكار من ذهب، قرطبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
- ٢٦ - عبدالله بن محمد الداود، متعة الحديث، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
- ٢٧ - خليل صقر، جند المعالي، دار ابن حزم للطباعة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- ٢٨ - عبدالستار الشيخ، عبدالله بن مسعود، دار القلم للطباعة، الطبعة الثانية.

الفهرس

٣	 المقدمة
٦	 بالمثال يتضع المقال
١٠	 موانع وهمية
١١	 انفصام مريع بين الإيمان والسلوك
١٢	 كيف بنى الصحابة أمجادهم؟
١٥	 موانع حقيقية
١٩	 مفاتيح التغيير
٢٣	 الخلطة والعزلة
٢٤	 أنواع الناس في الخلطة
٢٥	 ظاهرة التقاعس
٢٦	 نصائح ثمينة
٢٨	 تنبيه
٣٠	 قائمة المراجع
٣٢	 الفهرس